التـاريخية التي مرّوا بها، وتعلّموا منها تفادي هجومات العنف والمذابح؛ اذ لم يستخدموا اسلحة مميتة ضد الجيش الاسرائيلي، مما جعلهم يحرزون تقدماً ملموساً في علاقاتهم الدولية. وأدى لجوؤهم الى العصيان المدني (هنا يأخذ معنى التمرد على السلطات القائمة) الى تعاطف العالم معهم.

وحقيقة الامر، ان شعب الانتفاضة تقدّم من العالم في هيئة حطمت، والى حد بعيد، الصورة التقليديـة التي وضعت، باستمرار، م.ت.ف. والشعب الفلسطيني، جنباً الى جنب، مع الارهاب، وأحاطتهما باطار واحد. وحققت هذه الخطوة التكتيكية الصائبة، انجازاً لم يسبق ان أمكن تحقيقه. فالوجه الآخر لما ذكر يتعلق بصورة الطرف الآخر في الصراع، أي اسرائيل نفسها. فاذا كانت م.ت.ف. قد ظهرت في صورة المنظمة المسؤولة عن قضايا شعبها، والقادرة على ادارة الصراع والامساك بحلقاته بقوة، فقد بدأت صورة «اسرائيل الديمقراطية» تتغير في اتجاه صورة دولة جنوب افريقيا محسّنة قليلاً. وقـد كان وزيـر الخـارجية الاسرائيلية، شمعون بيرس، واحداً من بين كثيرين لم يستطيعوا اخفاء الحقيقة، واضطر الى الاعتراف بأن الاحداث أدت الى انقلاب في الرأي العام العالمي، وان سكان اسرائيل اليهود تحوّلوا الى أشرار؛ أما الفلسطينيون فالى طيبين يستحقون العطف. وذلك ان عشرات آلاف كلمات الدعاية المأذونة لن تمحو صورة واحدة لجندي مدجج بالسلاح، يتمنطق بحزام المعركة، يحمـل عصا بيده وبندقية باليد الاخرى، ويقف في مواجهة صبي يمسك بحجر، أو يرفع أصابعه باشارة النصر. وتبعاً لذلك، فقد حاز الفلسطينيون، في غضون أسابيع، على عطف العالم، وخصوصاً العطف الاميركي.

وكشفت الاحداث ان اسرائيل «الديمقراطية» واحتلالها «النيِّر» لم يكونا سوى استعمار تقليدي بشع فاق حدود التخيل، حتى عند اكثر يهود العالم اعجاباً بدولة «العسل واللبن»، التي لم تتعرض، منذ قيامها العام ١٩٤٨، لمحاولة تعرية كهذه، أو على الأصح، لم نتمكن نحن، فلسطينيين وعرباً، من تعـريتهـا كمـا عرّتها الانتفاضة، على الرغم من آلاف اطنان المحابر والكلمات والمنابر والشعارات والنشرات التي انطلقت، خلال أربعين سنة، وبجميع اللغات، تخاطب عالماً كان في وادٍ ليس وادينا. أما الانتفاضة، فقد جرّت العالم أجمع الى واديها هي، وجعلته يسبح في مياهها الدافئة. فقد أعادت هذه الحـرب الفلسـطينية ـ الاسرائيلية، التي أطلق عليها اسرائيليون «الحرب السابعة»، الصراع بين اسرائيـل والفلسـطينيـين الى جذوره الطبيعية، بعد ان تداخلت فيه، على مدى السنوات الماضية، التشعبات العربية والدولية المعروفة.

*
* *

الى ماذا يقودنا ذلك ؟ وأين يكمن التحول في طبيعة اشكال النضال وسبل استخدامها ؟

يكشف ما تقدم عن خطوة نوعية جديدة خطتها الانتفاضة الشعبية، وتعتبر تحوّلاً بالغ الأهمية أشبـه بـ «الانقـلاب» على مفاهيم الكفاح المسلح التقليدية، التي سادت في امتداد العشرين سنة الماضية. فبعد هذه السنين، تم «ترشيد» أساليب النضال، ووضع أولويات في سلّم استخدامها. فمن جهـة، «خرجت» صيغ الكفاح المسلح التقليدي من ساحة الصراع، على مستوى المناطق المحتلة، لتعطي مكانها للاشكال البدائية، والبسيطة؛ ومن جهة أخرى، أدى هذا «التراجع» الى افساح في المجال لتغيير المفاهيم التي ارتبطت به.